سلطان العقل عند ابي العلاء

يرى القارئ لتراث أبي العلاء — وخاصة اللزوميات — اشادة بالعقل واعترافاً بقوة سلطانه فهو أعز ما وهب الانسان .

والعقل أنفس ما حبيتَ وان يُضَع يوماً يَضَعْ، فغوى الشراب وما حلب

وهو الهادي الوحيد لمعرفة الخير والشر والحق والباطل فلا حاجة الى انتظار امام معصوم يرشد الناس الى ما يعمل وما يترك فالعقل كفيل ببيان ذلك كله .

يرتجي الناسُ أن يقوم امام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذبَ الظنُّ لا امام سوى العقـــل مشيراً في صبحه والمساء

ولكن الناس في كل زمان ما قدروا العقل قدره ولا وفوه حقه ولا عرفوا كيف ينتفعون به .

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن الا وعندي من أخبارهم طرف
يخبر العقل أن القوم ما كرُموا ولا أفادوا ولا طابوا ولا عرفوا
عاشوا طويلاً وماجوا في ضلالتهم ولايفوزون ان جوزوا بما اقترفوا

بالعقل والتفكير الصحيح تنقشع الغيوم وتنجاب الظلماء وتهون الصعاب وتنكشف الحقائق .

اذا تفكرت فكراً لا يمازجه فساد عقل صحيح هان ما صعبا

خذوا في سبيل العقل تُهدَوْا بهديه ولا يَرْجوَنْ غيرَ المهيمن راج
ولا تطفئوا نور المليك فانه ممتعُ كلِّ من حجىً بسراج

فكروا في الأمور يُكشف لكم بعـــضُ الذي تجهلون بالتفكير

والدنيا مملوءة بالتجارب ولكن التجارب طير اختبأ في عشه انما يستطيع أن يصيده من منح العقل والعمر

ان التجارب طير تألف الخمرا يصيدها من أفاد اللب والعمرا

والعقل هو المرآة الصادقة ترى فيها الحقائق ، لا كلام الناس والاخوان

أرى اللب مرآة اللبيب ومن يكن مرائيه الاخوانُ يُصدَقْ وُيكذبِ

وانما يقيد العقل ويمنعه عن ادراك الحق والعمل به ما ركب فيه من طبع وشهوات فالعقل مغلولاً بالشهوات كالشمس يحجبها الغمام .

تحارب الطبعُ الذي مزجت به مهجُ الأنام ، وعقلهم ، فيغله

ويظل ينظر ، مـــا سناه بنافع كالشمس يسترهـا الغمام وظله

حتى اذا حضر الحمام تبينوا ان الذي فعلوه جهل كله

واللب حارب فينا طبعاً يكابد حرْبه

* * *

والعقل أحسن هاد لفعل الخير وترك الشر وخير الخير ما أتاه صاحبه لأنه جميل لا رغبة في مثوبة ولا خوفاً من عقوبة

عليك العقلَ وافعل ما رآه جميلاً فهو مُشتارُ الشوار

ولا تقبل من التوراة حكماً فان الحق عنهـا في توَارِ

فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها

وأخيراً فالعقل نبي صادق من اتبعه رشد ومن صد عنه غوى

أيها الغر ان خُصصت بعقل فاسألنه فكل عقل نبيْ

وهكذا وهكذا ملئت اللزوميات بهذه المعاني وكررت على أشكال مختلفة نكتفي منها بهذا المثل لندل به على قيمة العقل في نظره وسلطانه والاعتداد به ولننظر بعد كيف استخدمه

لقد حمل على نضج عقل أبي العلاء ذكاؤه الفطري واطلاعه على الفلسفة اليونانية وصداها في الفلسفة الاسلامية وطول تفكيره وتأمله الذي اعانه عليـه وحدته وعزلته وتجرده من شواغل الدنيا ما استطاع .

وفي الفلسفة اليونانية لون زاه من ألوان العقلية والعقليين الذين يرون للعقل الحق المطلق في الحكم على الاشياء والبرهنة على صحتها أو بطلانها ولا يؤمنون بشيء ، ولا عقيدة ولا تقاليد ولا مواضعات الا اذا قام البرهان العقلي

على صحتها ومالم يقم البرهان العقلي عليه لايسلمون به مهما كانت السلطة التي تجيء به — وبذلك أخضع هؤلاء اليونانيون كل شيء للعقل وسلطانه ، فكما خلقوا العلوم الرياضية بعقولهم كذلك خلقوا الفضائل والرذائل بعقولهم وقرروا النظم الاجتماعية وأشكال الحكم السياسية بعقولهم من غير ان تمليها عليهم أية سلطة خارجية فالعالم عندهم عالم عقلي والانسان ضال مالم يكتشف قوانين نفسه وقوانين الطبيعة حوله يفعله ويسير على القوانين التي توائم بين نفسه والعالم الخارجي كما يرشد اليه عقله .

قرأ أبو العلاء هذا وتأثر به تأثراً عميقاً يدل عليه ما أشرنا اليه قبل من تمجيد للعقل وسلطانه ولكنه من ناحية أخرى نشأ في الاوساط الدينية وقرأ تعاليمها وتعمق مبادئها وهي تقضي بأن وراء العالم المادي المنظور عالماً روحانياً غير منظور ، وإن كان السلطان في عالم المادة للقانون الطبيعي يدركه العقل فالسلطان في عالم الروح حق وان كانت آلة العالم المنظور وادراك قوانينه هو العقل فآلة العالم الروحي وادراك قوانينه هو الوحي وفي هذا العالم الروحاني الله لا العقل هو مصدر التشريع وهو المرشد الى الفضائل والرذائل وهو واضع الشعائر الدينية وهو الذي ربط بها الثواب والعقاب وعلى الانسان ان يطيع أوامر الدين ولو لم يهتد الى بعضها العقل لأن قوة العقل في الانسان محدودة ووراء قوة العقل قوة الوحي

هاتان الصورتان — الصغيرتان جداً — اذا انعكستا في النفس سببتا الحيرة والاضطراب والقلق وقلما يسلم من قلقها الا من ألحد جداً فلم يخضع الا لحكم العقل أو آمن جداً فأسلم عقله لأيمانه وهناك أصناف من المذاهب الدينية والفلسفية أرادت التوفيق بين هاتين الصورتين بأشكال مختلفة مما ليس مقصدنا الآن .

فلننظر الى ابي العلاء المعري كيف وقف من هاتين الصورتين ، كيف كان موقفه من سلطان العقل وسلطان الدين

لقد أعلى شأن العقل كما رأينا وأراد ان يستخدمه على طول الطريق فبدأ ينقد به العادات والتقاليد ونظام الحياة الاجتماعية في عصره فكان في ذلك موفقاً كل التوفيق .

لقد نقد الملوك والأمراء لأنهم بوضعهم العقلي خدام الأمة .

إذا ما تبينا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم

فما بال هؤلاء الخدام يعدون عليها ويظلمونها

مل المقام فكم أعاشر امة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

وهم يصدرون من الاوامر مالا يتفق والعقل والعدل ثم ينفذون ما يأمرون بقوتهم وسلطانهم لا باقناعهم فاذا نفذ أمرهم قيل ما اسوسهم

يسوسون الامور بغير عقل فينفذ امرهم ويقال ساسه
فأف من الحياة وأف مني ومن زمن رياسته خساسه

وهؤلاء المسلطون على الناس لاعقل لهم ولاعدل عندهم شياطين في ثياب ولاة لا يهمهم جوع الناس اذا ملئت بطونهم وخمرت رءوسهم

ساس الانام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهم ان بات يشرب خمراً وهو مبطان

وحول هؤلاء الولاة بطانة قد جمدت عواطفهم كأنها الحجارة أو اشد قسوة لايرحمون دمعة مظلوم ولاصرخة مستغيث

يجور فينفي الملك عن مستحقه فتسكب أسراب العيون الدوامع
ومن حوله قوم كأن وجوههم صفاً لم يلين بالغيوث الهوامع

والقضاة لا عقل ولاعدل

وأي امريء في الناس ألفي قاضياً فلم يمض أحكاما كحكم سدوم

وفقهاء صناعتهم الكلام ولا روح ولا أحلام

كأن نفوس الناس والله شاهد نفوس فراش مالهن حلوم
وقالوا فقيه والفقيه عموه وحلف جدال والكلام كلوم

ووعاظ يقولون مالا يفعلون ويأتون ما ينكرون

رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمد مساء

وشعراء ليسوا الا لصوصاً يعدون على من قبلهم في سرقة أقوالهم ويعدون على الاغنياء بمديحهم لسلب أموالهم

وما شعراؤكم الا ذئاب تلصص في المدائح والشباب
اضر لمن تود من الأعادي وأسرق للمقال من الزباب (١)

وقوم تسودهم الخرافة فيلجئون الى المنجمين والعرافين والمعزّمين وما لهؤلاء بذلك من علم ولكن شباك تنصب لاستدرار الأموال من المغفلات والمغفلين

متكهن ومنجم ومعزّم وجميع ذاك تحيل لمعاش

لقد بكرت في خفها وازارها لتسأل بالأمر الضرير المنجما
وما عنده علم فيخبرها به ولا هو من أهل الحجا فيرجما
ويوهم جهال المحلة أنه يظل لأسرار الغيوب مترجما
ولو سألوه بالذي فوق صدره لجاء بمين أو أرَمَّ وجمجما

سألت منجمها عن الطفل الذي في المهد كم هو عائش من دهره
فأجابها مائة ليأخذ درهماً وأتى الحمامُ وليدها في شهره

وبعد أن تقدم طبقاتٍ من الملوك الى القضاة الى الوعاظ الى التجار الى النساء نقدم جملة ، فكل الناس في كل زمان ومكان لا يصلحون الا للفناء

وهكذا كان أهل الأرض مذ فطروا فلا يظن جهول أنهم فسدوا

لو غربل الناس كيما يُعدَموا سقطاً لما تحصل شيء في الغرابيل
أو قيل للنار خصي من جنى، أكلت أجسادهم وأبت أكل السرابيل

يحسن مرأى لبني آدم وكلهم في الذوق لا يَعذُب
ما فيهمُ بر ولا ناسك الا الى نفع له يَجذِب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

وسبب فسادهم أنهم منحوا العقل فلم يصغوا اليه ولم يلتفتوا له وتجاذبهم عقل يرشد وطبع يُغوي فجروا وراء طبعهم وبصقوا على عقلهم

فأوسع بني حواء هجراً فانهم يسيرون في نهج من الغدر لاحبِ

---

(١) الزباب : الفأر العظيم

وان غير الأثم الوجوه فما ترى لدى الحشر الا كل أسودَ شاحب
إذا ما أشار العقل بالرشد جرهم الى الغي طبع أخذه أخذ ساحب

واللب حاول أن يهذب اهله فاذا البرية مالها تهذيب
من رام إنقاء الغراب لكي يرى وضح الجناح اصابه تعذيب

الى الله اشكو مهجةً لا تطيعني وعالم سوء ليس فيه رشيد
حجىً مثل مهجور المنازل دائر وجهل كمسكون الديار مشيد

العقل ان يضعف يكن مع هذه الدنـ يا كعاشق مومس تغويه
أو يقو فهي له كحرة عاقل حسناء يهواها ولا تهويه

فطبعك سلطان لعقلك غالب تداوله أهواؤه بالتشصص
سقيت شرابا لم تهنأ ببرده فعنيت من بعد الصدى بالتغصص

وهكذا أفاض في نقد المجتمع ومظاهره ونظمه وأخلاقه وكان في ذلك موفقاً كل التوفيق ومظهر توفيقه أنه استطاع في مهارة أن يدرك عيوب المجتمع في جملته وتفصيله ويعالج ظواهرها ويعمق في النفس الانسانية في دقة وتحليل ومظهر توفيقه أيضاً أنه لم يتناقض في هذا الباب ولم يضطرب ولم يمجمج وجرى على وتيرة واحدة في صراحة ووضوح وانسجام

وسبب نجاحه في هذا أمران ـ الاول ـ ان الامور الاجتماعية والاخلاقية التي نقدها هي في صميم اختصاص العقل فالعقل أداة صالحة لربط الاسباب بالمسببات والأمور الاجتماعية والاخلاقية تجارب تحدث فتحدث نتائجها تظلم الملوك والحكومات فتسوء حال الأمة وتعدل فيصلح حالها وللوعاظ غاية هي ارشاد الناس من طريق اعطائهم المثل بانفسهم والدعوة الى الخير بألسنتهم فاذا لم تتحقق هذه الامور فالوعاظ شر وهكذا فكل ما نقده أبو العلاء من هذا القبيل داخل في دائرة العقل والتجارب ، والاخلاق العقلية التي قررتها الفلسفة اليونانية هي بعينها تقريباً الاخلاق الدينية لأنها أيضاً نتيجة تجارب لصالح المجتمع وقد نقدت مظاهر المجتمع والاخلاق من قبل أبي العلاء كما فعل

ابن المقفع مثلا ولكن مهارته كانت في ابرازها ابرازاً فنياً رائعاً — والسبب الثاني في نجاحه في هذا الباب أن ناقد هذه الامور متمتع بكثير من الحرية فلا لوم على أحد اذا نقد المجتمع و نقد الاخلاق بل ان الناس يصفقون للناقد ويعلون شأنه لأنه يدعوهم إلى الكمال المحبب إليهم من أعماق نفوسهم لذلك صرّح بكل مايريد في هذا الباب وهو آمن مطمئن فنجح .

بعد هذا انتقل خطوة أخرى في النقد أدق وهي تحكيم عقله في المسائل الدينية الشرعية الفرعية مثل اليد كيف تودى بخمسمائة دينار وتقطع في ربع دينار.

تناقض مالنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار
يدٌ بخمس مئين عسجد وُديت مابالها قطعت في ربع دينار

ومثل ان الاسلام جاء لمحو الأوثان والانصاب فكيف عظمت بعض شعائر الحج كاستلام الحجر الأسود وتقبيله ونحو ذلك .

ما الركن في قول ناس لست أذكرهم الا بقية أوثان وأنصاب

إلى نحو ذلك وهذا النوع قد عرض له أناس من أول عهد الاسلام أرادوا أن يحكموا العقل في التعاليم الاسلامية فصدوا كالتي سألت عائشة مابال المرأة تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة فقالت لها عائشة أحرورية أنت ؟ وكالذي روى أن ربيعة الرأى سأل سعيد بن المسيب عن عقل أصابع المرأة ماعقل الاصبع الواحدة قال عشرة من الابل قال فاصبعان قال عشرون قال فثلاث قال ثلاثون قال فأربع قال عشرون قال ربيعة فعندما عظم جرحها نقص عقلها ؟ فقال له سعيد أعراقي أنت ؟ انما هي السنة .

ومن أجل هذا روي عن عليّ أنه قال لو كان الدين بالعقل لكان المسح على باطن الخفين خيراً من المسح على ظاهرهما فجاء أبو العلاء ينقد على هذا النحو فلم يُرتجْ لقوله وردّ عليه الشعراء المتدينون فيما قال .

ثم خطوة أخرى أجرأ وهي عرض الحديث والاخبار الدينية على عقله وصرخته بأن كثيراً منها لايرتضيها العقل سواء في ذلك ما أتى به اليهود أو النصارى أو المسلمون .

وجاءتنا شرائع كل قوم على آثار شيء رتبوه
وغير بعضهم أقوال بعض وأبطلت النهى ما أوجبوه

جاءت أحاديث ان صحت فان لها شأناً ولكنّ فيها ضعف اسناد
فشاور العقل واترك غيره هدرا فالعقل خير مشير ضمه النادي

هل صح قول من الحاكي فنقبله ام كل ذاك أباطيل وأسمـــار
أما العقول فقالت أنه كذب والعقل غرس له بالصدق إثمار

ضلت يهود وانما توراتها كذب من العلماء والاحبار
قد أسندوا عن مثلهم ثم اعتلوا فنموا باسناد إلى الجبـــار
وإذا غلبت مناضلاً عن دينه ألقى مقالده إلى الاخبار

مسيحية من قبلها موسوية حكت لك أخباراً بعيداً ثبوتهـا
وفارسٌ قد شبت لها النار وادعت لنيرانها ألا يجوز خبوتهـا
فما هذه الأيام الا نظائر تساوت بها آحادها وسبوتها

تفوّهَ دهركم عجباً فأصغوا إلى ماظل يُخبر ، ياسهود
إذا افتكر الذين لهم عقول رأوا نبأ يُحق له السهود
غدا أهل الشرائع في اختلاف يُقض به المضاجع والمهود
فقد كذبت على عيسى النصارى كما كذبت على موسى اليهود
ولم تستحدث الايام خلقا ولا حالت عن الزمن العهود

دين وكفر وأنباء تُقص وفر قان ينص وتوراة وانجيل
في كل جيل أباطيل يدان بها فهل تفرد يوماً بالهدى جيل

اذا رجع الحصيف الى حجاه تهاون بالمذاهب وازدراها
فخذ منها بمـا أداه لب ولا يغمسك جهل في صراها

والناس لا يحكمون عقلهم في دينهم وانما هي تقاليد يتبعونها وعادات يجرون عليها.

وينشأ ناشيء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجى ولكن يعلمه التدين أقربوه
وطفلُ الفارسي له وُلاة بأفعال التمجس دربوه

في كل أمرك تقليد رضيتَ به حتى مقالك ربي واحد أحد
وقد أمرنا بفكر في بدائعه وأن تفكر فيه معشر لحدوا
وأهل كل جدال يمسكون به اذا رأوا نور حق ظاهر جحدوا

وقد سبقه المعتزلة إلى تحكيم العقل في الأحاديث وأنكروا منها مالا يتفق والعقل وخاصة « النظام » فقد كان ينكر الحديث في صراحة اذا كان عقله لا يقرّه ، لا يكتفي في الحكم على الحديث بالوضع اذا ضعف اسناده ولكن أهم من ذلك اذا لم يصبر أمام العقل ولكن أبا العلاء جرؤ على مالم يجرؤ عليه النظام وأمثاله وأراد أن يعرض الأخبار الدينية كلها أحاديث أو غيرها على محك العقل وختم هذه المرحلة بقوله الشديد الجريء

تقدم صاحب التوراة موسى وأوقع في الخسار من افتراها
فقال رجاله وحي أتاه وقال الآخرون بل افتراها
وما حجي الى أحجار بيت كؤوس الخمر تشرب في ذراها
اذا رجع الحكيم الى حجاه تهاون بالشرائع وازدراها

وقد كذب الذي يغدو بعقل لتصحيح الشروع وقد مَرِضنه

وقد قوبلت أقواله في هذا الباب ببعض السخط ولكنه سار فيه أيضاً بخطى ثابتة غير مضطربة وانما قلت ببعض السخط لأنه صاغها صياغة عامة يحتمل كثير منها التأويل في جانبه

بعد ذلك نأتي الى المرحلة الثالثة في نقده العقلي ، وهي أخطر المراحل واشدها وأوعرها وهي التي تعرض فيها لصميم الدين هل الله موجود أو لا وهل هناك وحي أو لا وهل هناك حياة اخرى أو لا وهل الانسان في هذا العالم مجبور أو مختار — ما الحق في ذلك كله وأين أجده وكيف أجده ؟

هنا كانت تتراءى له الصورتان السابقتان المتعارضتان صورة الفلسفة

اليونانية ومن نحا منحاها وهي التي تصوّر أن العقل وحده أداة المعرفة وهو وحده الذي يستطيع الوصول إلى الحقائق في ذاتها والمعارف التي تصلنا عن طريقه هي وحدها الحق ولا حق غيرها والصورة الدينية التي تصور أن الحق يأتي من الله على لسان أنبيائه وأن مرد الحقّ إلى الوحي لا إلى الفلسفة وأن مركز الحق في القلب لا في الرأس — لم يستطع أبو العلاء التوفيق بين الصورتين ولا أن يكوّن صورة واحدة مؤلفة منهما ولا أن يضع لهذه دائرة اختصاص ولتلك دائرة انما تركهما كما هما يعتركان وكل مافعل أنه كان ينظر أحياناً إلى هذه الصورة فتعجبه ويستلهمها فتلهمه وينظر أحياناً إلى الأخرى فتعجبه ويستلهمها فتلهمه ، ان نظر إلى الأولى ألهمته الحاداً وان نظر إلى الأخرى ألهمته إيماناً ينظر إلى الأولى فيتوقد ذهنه فلا يرى إلا أسباباً ومسببات ومنطقاً ونتائج ومقدمات لاتسلم إلا إيمـــان فينكر وينظر إلى الأخرى فيخفق قلبه ويرهفُ شعوره فيترنح من نشوة الايمان وهو في كلتا الحالتين صادق معبر عن نفسه أصدق تعبير وهذا الموقف ليس بعيداً عن حال كثير من المثقفين في كل عصر فكم منهم يحار ويصدّق ، ويلحد ويؤمن كالنفس تشدو لها أنغاماً حزينة فتحزن وأنغاماً سارة فتسر ، « إن الانسان يطغى أن رآه استغنى » وإذا أدركه الغرق قال آمنت أن لا إله إلا هو وأكثر مؤرخي أبي العلاء يخطئون لأنهم يتصورون في أبي العلاء وحدة الزمان والمكان والفكرة بل يتصورون نفسه الانسانية حجراً لاتعتريه حالات فمن اعتقد ايمانه تأول له أبيات الكفر ومن اعتقد كفره لم يأبه بآيات الايمان والحق أن من أكفره صادق ومن جعله مؤمناً صادق كلاهما يصوّر حالة من حالات نفسه وما أكثر حالات التغير في النفس اليقظة المتوثبة ، ثم هو في حال إيمانه صريح لايحتاج إلى كناية أو مجـاز فهو يتفق وآراء الجمهور وفي حال الحاده مضطر إلى الكناية والمجاز خشية من السوء ومع هذا فقد تستغويه الفكرة فلا يعبأ بالناس ولا يعبأ بموته أو حياته .

لاتقيد لفظي عليَّ فإني مثل غيري تكلمي بالمجاز

وليس على الحقائق كل لفظي ولكن فيه أصناف المجـــاز

اصدق إلى أن تظن الصدق مهلكة وعند ذلك فاقعد كاذباً وقم

لاتخبرن بكنه دينك معشراً شطراً وان تفعل فأنت مغرر

لنعد إلى موقف أبي العلاء من هذه المسائل الاساسية في الدين في ضوء هذا الرأي هل الله موجود؟ اللزوميات مليئة بالاجابة بنعم .

إذا كنتَ من فرْطِ النسفاه معطلا فياجاحد اشهد أنني غير جاحد
أخاف من الله العقوبة آجلا وأزعم أن الأمر في يد واحد
فأني رأيت الملحدين تعودهم ندامتهم عند الأكف اللواحد

تعالى الله كم ملك مهيب تبدل بعد قصرٍ ضيق لحد
أقر بأن لي رَباً قديراً ولا ألقى بدائعه بجحد

للمليك المذكرات عبيدٌ وكذاك المؤنثات اماءُ
فالهلال المنيفُ والبدر والفر قدُ والصبح والثرى والماء
والثريا والشمسُ والنار والنثـ ـرَةُ والأرض والضحى والسماء
هذه كلهـا لربك ماعا بك في قول ذلك الحكماء
خلني يا أخيّ أستغفر اللـ ـه فلم يبق فيّ الا الذماء

ليفعل الدهر مايهمُّ به ان ظنوني بخالقي حسنه
لاتيأسُ النفس من تفضله ولو أقامت في النار ألف سنه

هو الفلك الدوار أجراه ربه على ما ترى من قبل أن تجري الفلك
له العز لم يشركه في الملك غيرهُ فياجهلَ انسان يقول لي الملك
الخ الخ

وأحياناً أخرى تجد له مايجمح به في الانكار كقوله :

أما الاله فامر لستُ مدركه فاحذر لجيلك فوق الارض إسخاطا

متى عرض الحجا لله ضاقت مذاهبه عليه وقد عرضته

هل الكون قديم أزلي كما قال أرسطو أو هو مخلوق فانٍ كما يقول الدين ؟ أحياناً هذا وأحياناً ذاك فمن ناحية يقول :

وليس اعتقادي خلودَ النجوم ولا مذهبي قدمَ العالم

ومن ناحية أخرى يقول :

إذا صح ما قال الحكيم فما خلا زماني مني منذ كان ولا يخلو
أفرّق طورا ثم أجمع تارة ومثلي في حالاته السدْر والنخل

خالق لايشك فيه قديم وزمان على الأنام تقادم
جائز أن يكون آدمُ هذا قبله آدم على إثر آدم

هل الانسان في هذا العالم مجبر أو مختار ؟

أما أكثر شعره فالقول بالجبر

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر

جبلة بالفساد واشجة ان لامها المرء لام جابلها

وأحياناً يميل إلى الاختيار ومسئولية الانسان

لا ذنب للدنيا فكيف نلومها واللوم يلحقني وأهل نحاسى
عنب وخمر في الاناء وشارب فمن الملوم أعاصر أم حاسي

وأحياناً يرى التوسط بين الجبر والاختيار

لا تعش مجبراً ولا قدريا واجتهد في توسط بين بينا

هل هناك بعث وحياة أخرى ؟

أحياناً نعم وأحياناً لا

فنعم كقوله

وما انا يائس من عفو ربّي على ما كان من عمد وسهو

أما الحياة فلا أرجو نوافلها لكنني لإلهي خائف راجي

أأصبح في الدنيا كما هو عالم وأدخل ناراً مثل قيصر او كسرى

واني لأرجو منه يوم تجاوزٍ فيأمر بي ذات اليمين الى اليسرى

خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنفاد
انما ينقلون من دار اعما ل الى دار شقوة او رشاد

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر او صح قولي فالخسار عليكما

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة ان يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

و « لا » كقوله

خذ المرآة واستخبر نجوما تمر بمطعم الأري المشور
تدل على الحمام بلا ارتياب ولكن لاتدل على النشور

مالي بما بعد الردى مخبره قد ادمت الآنف هذى البره
الليل والاصباح والقيظ والـ إبراد والمنزل والمقبره
كم رام سبر الامر من قبلنا فنادت القدرة لن تسبره

دفناهم في الارض دفن تيقن ولا علم بالارواح غير ظنون .

واخيراً هل هناك وحي وانبياء او لا

الجواب ايضاً نعم ولا

فنعم في مثل قوله

ام الكتاب اذا قومت محكمها وجدتها لاداء الفرض تكفيكا
لم يشف قلبك فرقان ولا عظة وآية لو اطعت الله تشفيكا

افلة الاسلام ينكر منكر وقضاء ربك صاغها واتى بها

و « لا » في مثل قوله

افيقوا افيقوا ياغواة فانما دياناتكم مكر من القدماء
ارادوا بهاجمع الحطام فأدركوا وبادوا وماتت سنة اللؤماء

قالت معاشر لم يبعث الحكم الي البرية عيساها ولا موسى
وانما جعلوا للقوم مأكلة وصيروا لجميع الناس ناموسا
ولو قدرت لعاقبت الذين طغوا حتى يعود حليف الغي مرموسا

ان الشرائع القت بيننا احناً واودعتنا افانين العداوات
وهل ايحت نساء القوم عن عرض للعرب الا باحكام النبوات

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضلله
اثنان اهل الارض ذو عقل بلا دين وآخر دين لاعقل له
وهكذا وهكذا

لقد فكر ابو العلاء طويلا بعد هذه المرحلة الطويلة واستعرض مافكر وما قال فماذا رأى ؟ رأى تناقضاً في الفكر ، وفي القول ، يسلمه التفكير يوما الى الشيء انه أبيض فيعلنه ثم يسلمه يوما آخر الى انه اسود فيعلنه فاذا هو آخر الامر يعلنه أنه اسود وابيض معاً ومحال ذلك ، أيها الحق اهو اسود ام ابيض ، لابد ان يكون اسود فقط او ابيض فقط أما اسود وابيض معاً فضلال ، وما هذا العقل الذي يسلمني الى الشيء ونقيضه ؟ عند ذلك صرخ من اعماق نفسه بأنه حائر لم يوفق ، ضال لم يهتد وان ليس في الناس من يستطيع هدايته فكلهم اما عاقل لادين له او دين لاعقل له وهو يريد ان يكون ديناً عاقلا ، والمطمئنون الذين استطاعوا ان ينجوا من الحيرة مقلدون لم يؤمنوا عن فكر وعقل فهؤلاء ضالون لتقليدهم وهؤلاء ضالون لحيرتهم فلا امل في هؤلاء ولا هؤلاء ان تجد عندهم هاديا والعقل وما ادراك ماالعقل؟ اسلمت له قيادي فلم يسلم لي قياده ، وآمنت به كل الأيمان وفضلته على كل الاديان وجعلته نبياً من الأنبياء ونوراً يلمع في الظلماء فلم يؤد رسالته ولم ينقع غلته فلأكفر به كما كفرت بغيره ولأنكر سلطانه كما انكرت كل سلطة ولأكسر قيثارتي التي غنيت عليها في مدحه ولأضع اناشيد اخرى في ذمه فهذا هو الجزاء الوفاق لمن وفيت له فلم يف لي واكبرت شأنه فأصغر شأني وركنت اليه فحيرني جربت النقل فلم اطمئن اليه وجربت العقل فلم اطمئن اليه فلأرفع علم الشك واعلن ان لايقين .

سألت عقلي فلم يخبر وقلت له سل الرجال فما أفتو ولا عرفوا
قالوا فمانوا فلما ان حدوتهم الى القياس أبانوا العجز واعترفوا

أرواحنا معنا وليس لنا بها علم فكيف اذا حوتها الاقبر

سألتموني فأعيتني اجابتكم من ادعى انه دارٍ فقد كذبا

أصبحت في يومي أسائل عن غدي متحيراً عن حاله متندسا
أما اليقين فلا يقين وانما أقصى اجتهادي ان اظن وأحدسا

وقد عدم التيقن في زمان حصلنا من حجاه على التظني

نفارق العيش لم نظفر بمعرفة أي المعاني باهل الارض مقصود
لم تعطنا العلم أخبار يجيء بها نقل ولا كوكب في الارض مرصود

انما نحن في ضلال وتعليـــــل فان كنت ذا يقين فهاته
ولحب الصحيح آثرت الرو م انتساب الفتى الى امهاته
جهلوا من ابوه الا ظنونا وطلا الوحش لاحق بمهاته

وبصير الاقوام مثلي أعمى فهلموا في حندس نتصادم

لقد تركت الدنيا للدين والنقل للعقل ولذة المادة للذة الروح فلا افدت هذا ولا ذاك واخيراً

رحلت فلادنيا ولادين نلته وما اوبتي الا السفاهة والخرق

عقدة ابى العلاء اتت من عظمته وضعفه نبع من قوته ـ قد منح عقلا قويا دائب النشاط يريد ان يطحن كل شيء يصل اليه ليعرف كنهه وشعوراً قويا رحيما بالانسان راثيا لبؤسه رحيما بالحيوان معذبا نفسه في سبيل الرحمة به ، ومثل هذا الشعور القوي يريد ان يؤمن ومثل هذا العقل يريد ان يواصل هذا البحث حتى يصل الى الحقيقة ، ولكن ـ وهنا موضع العقدة ـ انه يريد ان يؤمن

بعقله كما آمن بشعوره والعقل ليس اداة صالحة لادراك الغيب ـ ادراك الله والحياة الاخرى والوحي والملائكة وما الى ذلك انما خلق ليكون اداة للحياة الدنيا ووسيلة لحفظها وبقائها ورقيها وهو عاجز كل العجز ان يرسم بريشته عالم الغيب المجهول الذي لايخضع لقانون سبب ومسبب ومقدمة ونتيجة وزمان ومكان وحيز وحدود .

لقد شغلت الفلسفة القديمة بالبحث وراء المادة فدارت حول نفسها ولم تصل الى نتيجة حتى جاءت الفلسفة الحديثة وعلى رأسها « كانت » فتحول بعض فلاسفتها من البحث فيما وراء المادة الى البحث في العقل نفسه ومقدرته على المعرفة وحدود مايمكن ان يعرف وما لايمكن ان يعرف ، ان العقل انما يستمد معلوماته من الحواس وكل البحوث في سائر العلوم حتى ادق العمليات الرياضية والهندسية منشؤها الحواس أعمل فيها العقل بالمقارنات وما الى ذلك والحواس لاتدرك من العالم الا بقدر فاذا انخفض الصوت عن قدر معين أو ارتفع عن قدر معين لم تسمع وهكذا العين والشم واللمس فكم في العالم من اشياء لم تدركها عقولنا لانها لم تدركها حواسنا ـ والعقل لايستطيع أن يسير الا مستنداً على حواسه ولا يمكن أن يدرك من العالم الا مظهره هل يستطيع أن يدرك ما الضوء وما الكهرباء وما الجاذبية انما يدرك آثارها ومظاهرها هل يستطيع أن يدرك مركز نفسه وحقيقة شعوره كلا انما يدرك آثار ذلك في الحياة الخارجية — من أين أتينا أين كانت حياتنا قبل أن نحيا ماذا تكون حياتنا بعد ان نموت ما حقيقة علاقتنا بالعالم الخارجي حولنا كل هذه الأسئلة ومئات نحوها لا نعرفها ولا يستطيع العقل أن يعرفها ولم يتقدم العقل في ادراكها كما تقدم في العلم بقوانين المادة — كم في العالم من حجر مغلقة لم نعط مفاتيحها .

انما نشعر بالله وبالحياة الأخرى وبالملكة الروحانية من غير أن نعقلها وتطمئن نفوسنا اذا آمنت وتقلق وتضطرب اذا ألحدت ، « لقد ارتفع برجسون » (الفيلسوف المعاصر) الى أوج الشهرة في أعوام قلائل لأنه دافع عن الأماني الانسانية وآمالها فكم اغتبط الناس واطمأنوا اذ رأوا فيلسوفاً يصون لهم مايرجون من خلود وما يعتقدون في إله وقال وليم جيمس « لقد بحثت في نفسي ولم أعلم ماهي وما شبهها وأين تسكن وكيف تتغير وكيف تكون مجبورة وكيف تكون

مختارة ، وتتغير نظرياتي في ذلك من وقت الى وقت ولكن مع هذا أؤمن بنفسي وأؤمن أنها مركز لكل ما أعرف عن العالم حولي » كذلك الشأن في ادراك المبدأ والمنتهى والله والخلود ، انها عقيدة وإيمان لا قضايا منطق .

اعتبر الاديان كلها ، مبعثها ومظهرها ، تجدها تختلف باختلاف الامم ورقيها وطبيعتها وتتغلب عليها صفة من الصفات تكاد تكون كالمحور : كالتضحية ومعنى الابوة والرحمة والغفران واطاعة الاوامر والفن والجمال وانكار الذات والاحسان الى الجميع والشفقة على الحيوان والشجاعة والجهاد في سبيل نشر الدعوة ولكن كل هذه الصفات على اختلافها من قبيل العواطف والمشاعر ولم نر دينا أتى بفلسفة عقلية ـ لماذا هذا وقع في الحب وهام بمن يحب ولماذا هذا جمدت عواطفه ولم يحب ؟ لاادري ولست تستطيع أن تقنع المحب بالحجج العقلية حتى يسلو ولا ان تقنع من جمدت عواطفه حتى يحب ـ ان عقله قد يقيم البرهان على خطأ الحب وقد يمنعه من الزواج ولكن لايستطيع ان يمنعه من الحب وهكذا الشأن في كل المشاعر وهكذا الشأن في الدين الذي في القلب لافي العقل ـ اذا بحث الدين بالعقل المجرد لم تكن النتيجة دينا ولا فلسفة وانما شيء تافه اسمه « علم الكلام »

وقد اراد ابو العلاء ان يضم الى ايمانه بقلبه ايمانه بعقله فلم يستطع ، وكانت العقدة . ولو نام شعوره وانتبه عقله لألحد مستريحا ولو نام عقله وانتبه شعوره لآمن مستريحا ولو صحا عقله وشعوره ورسم لكل حدوده وعرف لكل دائرة اختصاصه لاستراح أيضاً ولكنه اراد ان يصل الى الفاكهة المحرمة على العقل فلم يفلح وقلق واضطرب كما يقلق ويضطرب ـ كل من خرج على قوانين الطبيعة وحاول الخروج على طبائع الاشياء لأن الدين يغذي حاجة من حاجات النفس لاغنى لها عنه الا اذا مرضت هذا هو السبب في انه نقد المجتمع فنجح ونقد الاخلاق فنجح ونقد الاخبار فنجح ونقد الدين في صميمه فلم ينجح يعجبني وصف بعضهم لهيجل وصفا ينطبق على أبي العلاء انطباقا تاما اذ قال « انه رجل كفر عقله وآمن قلبه » كما يصدق عليه ايضا قول جوته عن « فاوست » « انه عقل طغى على القلب فاشقى صاحبه »

وايا ما كان فهذه الشخصية الفذة الشخصية المؤمنة الكافرة لشخصية الفلسفة الحائرة اخرجت كل ذلك وكل ما كان يتناوبها من نبضات قلب وخطرات عقل في صور فنية رائعة امتعت الناس وان اشقت صاحبها فرحمه الله ورحمه الله .

احمد امين